لو...

عباس محمود العقاد

« لو » في حياة الأفراد كثيرة وهي في حياة الأمم أكثر.

فما من أحد إلاّ ويذكر في حياته حادثًا خطيراً كان من الجائز ألا يحدث لولا مصادفة صغيرة، أو عملا جليلاً تم على يديه وكان من الجائز ألا يتم لولا كلمة سمعها أو خبر وصل إليه من حيث لا ينتظر وصوله، وأكثر الناس يستطيع أن يرد أمر نجاحه، إخفاقه وسعادته أو شقائه إلى أشياء لم تكن تخطر على باله قبل وقوعها ولو أنها وقت عرضا كما اتفق بها لتغير مجرى حياته.

ويتفق هذا للأمم كما يتفق للأفراد أو هو في تواريخ الأمم أكثر اتفاقا لأنها أطول أعماراً وأحفل بالحوادث وأوسع منافذ للصروف والغير، فهي كذلك أحفل بالمصادفات أو ما نسميه نحن بالمصادفات لأننا نجهل ما رواه من الأسباب ولا نسلسل حلقاتها الى مبادئها الخفية وأصولها الحقيقة. وهذا هو موضع البحث الذي يكتب فيه الآن الأستاذ «هيرنشو» أستاذ التاريخ بكلية الملك في جامعة لندن وينشر فصوله المتوالية في مجلة «الأوتلاين» الإنجليزية.

من الأقوال المشهورة أنه لو اختلف أنف كليوبترا في الطول بمقدار ثمن قيراط لاختلف معه تاريخ المسيحية وتاريخ العالم بأسره.

كيـــــف ذلـــــــك؟

قالوا: نعم. لو طال أنف كليبوترا أو قصر بمقدار ثمن قيراط لشاه وجهها وذهبت فتنة جمالها وعز عليها أن توقع في شباكها رجلا كيوليوس قيصر أو رجلا كمارك أنطونيوس ومن ثم كانت معركة «اكتيوم» تختفي من التاريخ وكانت دولة «أوغسطس» تنشأ في حدود غير حدودها ومعالم غير معالمها، فلا بيلاطس يحكم في سورية ولا هيرود يملك على اليهود ولا الظروف التي أتاحت

للقديس بولس أن يجوب الأقطار للتبشير بدعوته كانت تتهيأ له كما تهيأت أو تحدث كما حدثت. وكان من المحتمل أن تظل رومة بمعزل عن المسيحية بقية حياتها، إلى غير ذلك من التقديرات التي ليس لها اليوم ميزان توزن به ولا يقف بها التحليل عند غاية.

ذلك مثل مما يصح أن يتغير في تاريخ الدنيا إذا تغير فهي أنف إمرأة، وليس هذا التغيير بالأمر الحقير كما يقول الأستاذ ولا سيما في رأي السيدة التي تحمل ذلك الأنف الذي يراد به أن يقصر أو يطول..! ولكنه بالغًا ما بلغ من الخطر وجلالة الشأن تغيير يعجب الكثيرين إذ قيل لهم إنه يتصرف بالدنيا والآخرة هذا التصرف وتتعلق به مقادير الأمم وآمال بني الإنسان في العالم المجهول.

ومثل آخر من الأمثلة التي ذكرها الأستاذ في فصول هذا البحث، عمر الإسكندر الكبير الذي مات بحمى «الملاريا» في الثالثة والثلاثين وهي سن صغيرة يفتتح بها كثير من الناس سجل الشهرة والخلود. أفما كان من الجائز ألا يصاب الإسكندر بالحمى وألا يموت في هذه السن الصغيرة؟ وإذا تأخر به العمر حتى ناهز السبعين أو الثمانين وأنجز ما في نفسه من المطالب والخطط أفكان يمضي تاريخ الشرق والغرب في مجراه الذي مضى فيه أم كان لابد له من تغيير يظهر لنا أموراً لم تظهر ويخفي أموراً لم تخف ويترتب عليه أن أناسًا منا لا يولدون وأن أناسًا آخرين يولدون وهم الآن في عالم الوهم والإحتمال؟

قال الأستاذ: لو أن الإسكندر الكبير لم يحتضر في سنة 323 قبيل الميلاد بل عاش حتى بلغ الكهولة على الأقل فنظم فتوحاته ووطد أركان ملكه وأتم برنامج فتوحه وأنضج سياسته لجاز أن يتحول كل مَا أعقبه من الحوادث تحولاً عظيماً باقي الآثار. فقد كان في العهد الذي مات فيه ينوي أن يغزو بلاد العرب ليضمها الى دولته وأن يسيّر على قرطاجنة أسطولا، ثم يغير بعد ذلك على «رومة» التي كان الإستيلاء عليها في ذلك الحين من أهون الأمور وأقلها كلفة...

فلو أنه ملك بلاد العرب لكان من المحتمل ألا يظهر النبي محمد..!

ولو أنه ملك قرطاجنة لكان من المحتمل ألاّ يظهر هنيبال ولا يتردد له إسم في الأسماء.

ولو أنه ملك رومة لما ظهر يوليوس قيصر من خموله في الريف ولا كان هذا الشهر يوليو (كتب هذا الفصل في شهر يوليو الماضي).

بل أعظم من ذلك أن المسيحية التي كانت في عنصرها نحلة من نحل الإسكندرية ما كانت لتصبح يومًا وهي كاثوليكية رومانية.

* * *

واحتمال آخر من هذه الإحتمالات العجيبة. إن فلسفة روسو كلها كانت على وشك الضياع في ساعة من الساعات ثم كان من المحقق أن ضياعها يؤثر بعض التأثير في مجرى الثورة الفرنسية التي كان روسو من أبنائها المتبعين وكانت كتبه بمثابة الوحي لبعض دعاتها المسموعين.

فلو إستطاع روسو في مساء 14 مارس 1728 أن يتقدم عشرين خطوة الى باب جنيف لبقي حيث كان صبيا يتعلم الحفر ويعول على النبوغ وقلمًا يخطر له خاطر الكتابة والتأليف.

ولكن روسو تأخر عشرين خطوة عن باب المدينة في ساعة اقفاله ففر من معلمه الصارم العسوف الذي كان أنذره أشد انذار إذا هو تأخر في المساء، وعرف روسو معنى هذا الإنذار من سابقتين سلفتا له في التأخير فلوى وجهه عن باب المدينة وأقدم على تلك الحياة الشاردة الهائمة التي ساقته الى التأليف وبثت في تصانيفه روح التذمر وحب التبديل.

وحدث كل ذلك اتفاقا على خلاف الحساب المعروف، فإن باب المدينة كان يقفل في الساعة الثامنة وروسو قد عاد من رحلته في الخلاء قبل الساعة الثامنة ببضع دقائق. فلماذا أقفل الباب يومئذ قبل موعده؟ ولماذا حدث بعد ذلك ما حدث من خطوب كبار في تاريخ السياسة وتاريخ الأدب؟ حدث ذلك كله لأن حارس الباب كان على موعد مع حبيبته تنتظره في ذلك المساء وكان شديد الشوق الى لقائها فعجل بإقفال الباب قبل الساعة الثامنة، وكان روسو على

مسافة عشرين خطوة منه فعدا إليه فلم يدركه وضاع رجاؤه عبثًا وتركه الخاسر يصرخ لمن لا يجيب ويتخبط ولا من سميع...

* * *

هذه أمثلة من احتمالات كثيرة أوردها الأستاذ وأورد غيرها، وفي وسعنا نحن أن نضيف إليها من تاريخ مصر الحديث ما يضارعها في الغرابة وفي حكم المصادفة، فماذا كان يطرأ على تاريخنا الحديث من التغيير لو أن محمد علي الكبير لم ينج من الماء في الشواطئ المصرية عند قدومه الى مصر في المرة الأولى؟ أو المماليك قبل ذلك من خائن وجاسوس؟ أو ماذا كان يطرأ عليه لو أن «سعد زغلول» عمل في الفلاحة والزراعة ولم يعمل في الفقه والقانون فهذه احتمالات معلقة بالمصادفات التي قد تكون وقد لا تكون ولكنها خطيرة النتائج بعيدة الآثار.

لنا أن نخفف من غلواء هذه الإحتمالات فلا نجعلها الحكم المطلق فيما يتعلق بها من التطور والتبديل. لنا أن نقول مثلاً في أنف كليوبترا أنه كان يطول أو يقصر وإن ملامحتها كانت تشوه أو تحسن، ثم لا يغير ذلك من قلب «أنطونيوس» وحبه للنساء واستعداده للوقوع في شرك إمرأة غير كليوبترا من نسائها أو من نساء بعض البلاد.

ولنا أن نقول إن الشقاق كان وشيكا أن تنجم له أسباب كثيرة بين «أنطونيوس» و«أكتافيوس» فتؤدي الى الحرب فالظفر لمن هو أهل للظفر والهزيمة لمن هو أهل للهزيمة.

ولنا أن نقول إن رومة كانت تطمع في ملك مصر ولو لم ينشب فيها نزاع بين قائدين ولم يقبض فيها على ناصية الأمر قائد مغوار عظيم الدهاء.

لنا أن نقول هذا في أنف كليوبترا، ولنا أن نقول مثله في عمر الإسكندر وفي خطوات روسو وفيما شابه ذلك من العوارض والمصادفات، ولكننا إذا قلنا هذا أو غيره فإلى أين نريد أن نصل وبماذا نخرج من جميع هذه الفروض.

هل نستطيع أن ننكر أن الكبائر تتعلق بالصغائر وأن هذه الصغائر إذا زالت أو لم تحدث خلقتها صغائر أخرى تعمل عملها وتقوم في تصريف الكبائر مقامها، هل نستطيع أن نغتر بأنفسنا فنزعم أن كل جليلة تكبر علينا تكبر على المقادير فلا تعترينا إلاّ كما نقدر لها من التقدير ونفرض لها من الظواهر والأسباب.

هذه هي العبرة من حيث «لو» وما تصرفه من تواريخ الأفراد والأمم، فقد يعظم علينا الخطب فيكبر علينا أن نعلقه بالصغائر، ثم لا ترى فيه الأقدار إلاّ أن تعلقه بأصغر صغيرة من العوارض والمصادفات، وقد نلتمس العلل الجسيمة لأننا نقيسها بمقياس لا تأخذ به نواميس الوجود، وعزيز علينا أن تتعلق مصائر الأمم بثمن قيراط ينقص في أنف كليوبترا أو يزيد. ولكن من أين لنا أن ماهو عزيز علينا عزيز كذلك على الأقدار أو على نواميس الوجود.

قال حكيم: إذا شئت أن تهون عليك خطوب بني الإنسان فارفع بصرك الى السماء وانظر أين تقع الأرض في ذلك الكون الفسيح الذي لا أول له ولا آخر... أفحق نحن في حاجة إلى نظرة في السماء الرفيعة والكون الفسيح لنعلم كيف يهون علينا ما ليس يهون لا ياسيدي الحكيم! أنظر الى الخطوب نفسها وانظر الى أسبابها ومصادفتها تعلم كيف تهون عليك تلك الخطوب.